النقد اللساني وتحليل البنى السردية *قراءة في تجربة روجر فاولر النقدية

أ.م. د. سعيد عبد الهادي المرهج
جامعة بغداد - كلية التربية للبنات

الخلاصة

يجمع المختصون أن ليس من نقد إلا وكان مُرحِّلا لنظرية لسانية إلى فضائه، فكان أثر اللسانيات السوسيرية، ومن ثم اللسانيات التوليدية التحويلية معروفا، ولم يكن هذا الأثر محدودا باللسانيين أو نقاد الأدب فحسب، بل امتد إلى الشعراء والجماليين أيضا. وفي هذا البحث سنتوقف عند أثر اللسانيات الوظيفية، وهو ما لم يتوقف عنده إلا قلة من المختصين. ولن نقف عند نقد الوظيفيين للشعر، بل سنقف عند نقدهم للرواية، بقراءة ما قدمه (روجر فاولر). وتأتي أهمية هذا البحث من كونه يسلط الضوء على درس نقدي لم يحظ بالشهرة في ثقافتنا العربية، ولم يقف عنده أحد من الدارسين نقدا أو تبنيا، بالرغم من أنه يقدّم حلا مناسبا للخلط السائد في الكثير من الدراسات الأكاديمية أو النقدية بين الفني والموضوعي (البينوي/ السيميائي).

لقد انشغل النقاد المعاصرون بعرض وتطبيق منهج (جيرار جينيت) ومن بعد منهج (غريماس ومدرسته) وأصبحا موضة نقدية متحكمة بمجريات النظر النقدي العربي.. وما نسعى إليه، بعرضنا لنظرية روجر فاولر ونقدنا لها، الانفتاح بدرسنا النقدي نحو ضفاف مختلة قد تثري بحثنا وتدعم نقدنا للنظريات المتداولة، مولدة وجهة نظر تركيبية بالمنجز النقدي، وتحليلية غنية في التعامل مع النص الإبداعي.

وخلصنا إلى القول: إن مساحة النقد اللساني، برغم سعتها المطروحة في أفكار فاولر، إلا أنها مساحة قادرة على منحنا منهجا يمكن له أن يتجاوز الأحادية التي عرفتها العديد من المناهج السائدة، مثل: منهج جينيت، وتأكيده الجانب الفني، ومنهج غريماس، وتأكيده الجانب الثيماتي. والأحادية الأعمق التي عرفتها الدراسات الأسلوبية في بعديها المحلي (العربي) والعالمي. إذ جرى التأكيد على لغة النص وشكله، واستبعد المحتوى. ومن جانب آخر نراه منهجا أكثر مرونة من مناهج تحليل الخطاب التي جرى التسويق لها بقوة مؤخرا. ثم إن مجالنا النقدي بحاجة إلى أن يتسع برؤاه، في الوقوف عند مختلف الاتجاهات النقدية، والتفاعل مع هذا الاتجاه يمكن له أن يكون خصبا معطاءً. لكن من جانب آخر فإن هذا المنهج بسعته المطروحة يمكن أن يكون تلفيقيا مخلا إذا أسيىء تطبيقه، فليس من الممكن اعتماده من قبل الدارس ما لم يكن ملما، إلى حد ما باللسانيات الوظيفية، لكي يحافظ على قاعدة ارتكازه ولا يضيع بين مدارس كان لها أثرها في تشكل نقد فاولر.

The Lingual Criticism and Explication of the Narrative Syntax A reading in Roger Fawler's Critical Attempt

Asst. Prof.Dr. Saaid Abdul-Hadi
Baghdad University - College of Education For Women

Abstract

All the specialists agree that there is no criticism without carrying a lingual theory to its space. So there was Suserian lingual effect and later lingual productive transformation which was well-known. This effect has no limitation only for lingual specialists or reviewers but it is extended to include poets and aesthetical also. In this research, we'll explain the effect of functional linguistics which there were only few who studied it till now. Here we are not only going to explain the functionalist criticism of the poetry, but we will also show Their critical attitude of novel as it was introduced by Roger Fawler. This paper is important because it shed lights on unknown critical study in our Arab culture. No one of the specialists

* صدر كتاب مبكر للأستاذ الدكتور موريس أبو ناضر تحت عنوان الألسنية والنقد الأدبي وقد توقف فيه عند (نظرية المستويات) المأخوذة من (الجملة) لتطبق على النص.. ولم يخرج عن وظائفية مدرسة باريس السيميائية إلا قليلا، ومن ثم لا علاقة لما درسه بما أطلقنا عليه النقد اللساني.. لكنه يؤشر إلى نقط مهمة، وهي التأثير الشامل للدرس اللساني في المدونات النقدية. ينظر: الألسنية والنقد الأدبي (في النظرية والممارسة) الدكتور موريس أبو ناضر، دار النهار للنشر، بيروت، ط1، 1979.

had critically studied or adopted it even though it gives suitable solution to current confuse in many academicals study or between technical and objective critical.(structural/Semitical).
Modern critics worked for explaining and applying GerarGenate method and Greemas school which they become the govern critical style rule in Arabic critical point of view. Here the researcher is doing his best to explain and criticize Roger Fawler's theory so that he tries to open different critical method studies to enrich this study and support his criticism to the current theories generating structural point of viewin critical achievement and rich analytic in ingenuity text.

In summary, the extend of lingual criticism, in addition of its expansion in Fawler's mind, it may give a method that make us to overcome the only known present prevailing methods as Genate which emphasizes on technical side and Greemas which emphasizes 'thaymatic' which is the deep single known by style studies in both Arab and global extend. There was emphasize on text language and form, neglecting content. On the other side we can say that there is a method with more flexibility than the methods of speech analysis which had spread strongly later. In addition our critical work needs expansion and studying of different critical directions with interaction so that to be useful and rich, but on the other side this method with its present expansion could be useless if it is misused. It could not be adopted if the student didn't have good knowledge about functional linguistics to keep on its base and not to be confused among schools which had effected in framing Fawler criticism.

1 - مقدمة

هل يمكن أن نتحدث عن نقد أدبي في القرن العشرين بعيدا عن اللسانيات؟ إنه سؤال يكاد يجمع المختصون بشأن إجابته، إذ ليس من نقد إلا وكان مُرحّلا لنظرية لسانية إلى فضائه، فكان أثر اللسانيات السوسيرية، ومن ثم اللسانيات التوليدية التحويلية معروفا، ولم يكن هذا الأثر محدودا باللسانيين أو نقاد الأدب فحسب، بل امتدّ إلى الشعراء والجماليين أيضا، فهذا بول فاليري يقول: "ليس الأدب، ولا يمكن أن يكون، إلا توسيعا لبعض خصائص اللغة واستعمالا لها"[1]
لكن في هذا البحث سنتوقف عند أثر اللسانيات الوظيفية، وهو ما لم يتوقف عنده إلا قلة من المختصين. ولن نقف عند نقد الوظيفيين للشعر، بل سنقف عند نقدهم للرواية، بقراءة ما قدمه (روجر فاولر). وتأتي أهمية هذا البحث من كونه يسلط الضوء على درس نقدي لم يحظ بالشهرة في ثقافتنا العربية، ولم يقف عنده أحد من الدارسين نقدا أو تبنيا، بالرغم من أنه يقدم حلا مناسبا للخلط السائد في الكثير من الدراسات الأكاديمية أو النقدية بين الفني والموضوعي (البينوي/ السيميائي).
لقد انشغل النقاد المعاصرون بعرض وتطبيق منهج (جيرار جينيت) ومن بعد منهج (غريماس ومدرسته) وأصبحا موضة نقدية متحكمة بمجريات النظر النقدي العربي.. وما نسعى إليه بعرضنا ونقدنا لنظرية روجر فاولر الانفتاح بدرسنا النقدي نحو ضفاف مختلة قد تثري بحثنا وتدعم نقدنا للنظريات المتداولة، مولدة وجهة نظر تركيبية بالمنجز النقدي، وتحليلية غنية في التعامل مع النص الإبداعي.

2 - في الوظيفية

بدءا من المهم الوقوف عند اللسانيات الوظيفية ذاتها، ومعرفة كنهها، لأنها الحاضنة التي ولد فيها درس (روجر فاولر) النقدي، قبل الوقوف عند توظيفها في النقد الأدبي. والوظيفية كما يحدها (ديكرو) في معجمه، هي: "البحث عن الوظائف التي تؤديها (اللغة) في التواصل: العناصر، والأصناف، والآليات، التي تتدخل فيها. وإن هذه الوظائف لتكون... قائمة في أصل التنظيم والبنية الداخلية للغات"[2]. أما (مارتينيه) فيقول: "يستعمل مصطلح "وظيفي" هنا بالمعنى الأكثر تداولا للمصطلح، ويقضي بأن تحلل الملفوظات اللغوية اعتمادا على الكيفية التي تساهم بها في سيرورة التواصل"[3].
ويمكن أن نتحدث عن مدرستين وظيفيتين: الأولى الوظيفية البنيوية التي تشكّلت بفضل الدرس الصوتي والنحوي لمدرسة براغ، وكان أثرها حاضرا فيما قدمه مارتينيه. والأخرى الوظيفية الإنكليزية التي انطلقت من فيرث (1890- 1960) وتلامذته، وبتأثير من الانثربولوجي (مالينوفسكي) الذي قادته دراسة لغات الشعوب البدائية إلى تأكيد أهمية سياق الموقف في فهم الكلام المنطوق. وهناك من يربطها (الوظيفية الإنكليزية) بالبنيوية برغم تعدد اتجاهاتها "ينبغي وضع الوظيفية

[1] النص منقول عن اللغة والأدب لتزفتان تودوروف، ضمن كتاب اللغة والخطاب الأدبي، مجموعة كتاب، اختيار وترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1993: 41.
[2] القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، أوزوالد ديكرو، جان ماري سشايفر، ترجمة د. منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 2007: 49.
[3] النظريات اللسانية الكبرى: 222.

ضمن مجموع الحركة البنيوية، فهي بنيوية خاصة يمكن تسميتها بالبنيوية الوظيفية. وإذا أردنا دمج الوظيفية في إحدى الأطروحات النقيضة المصنفة للتيارات اللسانية التي تكون "القارة البنيوية" فينبغي أن نعارضها بالشكلانية: إذ بينما تحظى الصور اللغوية داخل المجتمع بأهمية أكبر في الوظيفية، تجعل الشكلانية الاشتغال الداخلي للنسق اللغوي في صلب اهتماماتها"[1]، فيما ذهب (المتوكل) إلى التمييز بين ما هو وظيفي، وما هو غير وظيفي[2]. في حين عدّ كل نظرية تذهب إلى أن الخصائص التداولية تحدد الخصائص البنيوية نظرية وظيفية[3]، فيما رأى مارتينيه أن "اللغة أداة تواصل ازدواجية النطق (ثنائية التقطيع) وذات طابع صوتي"[4]. وعلى وفق هذا ذهب الوظيفيون إلى القول بأن "الفروق بين اللغات الطبيعية تكمن في الخصائص الصورية (الصرفية والتركيبية والصوتية) أكثر مما تكمن في الخصائص الوظيفية (الدلالية والتداولية) وإن هذه الفروق يجب أن ترصد، بالتالي، في مراحل التسطيح، أي عن طريق قواعد التعبير"[5]. لذا رأت النظرية الوظيفية أن القدرة التواصلية مجموعة من القدرات التواصلية أو (الملكات) تفعَّل وتتفاعل في عمليتي إنتاج الخطاب وفهمه وفقا للموقف التخاطبي ونمط الخطاب"[6]. هذا التأكيد على البعد التواصلي يوضح، بما لا يقبل الشك، أهمية البعد الاجتماعي في اللسانيات الوظيفية، هذا البعد الذي لا يمكن أن يتجلى، تواصليا، إلا من خلال النصوص، لذا اتجه الوظيفيون نحو (الخطاب) وكان لسيمون ديك، وهو أحد مبدعي هذا النحو، دور الريادة، إذ يقول "لا يتكلم مستعملو اللغة الطبيعية بعبارات أو جمل معزولة، بل يؤالفون فيما بينها، في إطار تمديدات أطول وأعقد وهي ما يمكن أن ننعتها عموما بـ"الخطاب". إن الخطاب هو أكثر (بكثير) من متوالية اعتباطية من الجمل. ينتج عن ذلك أنه ولو امتلكنا أفضل نظرية للجملة، فإن هذه النظرية سينقصها الكثير، إذا أردنا اعتبارها مكونا في نظرية أشمل للقدرة التواصلية لمستعملي اللغة الطبيعية. أضف إلى ذلك أنه ما دامت الجمل، في بنيتها الداخلية، تتأثر بعوامل خطابية متنوعة، فإن نظرية "أفضل" للجملة (المعزولة) هي ببساطة مستحيلة. بناء على ذلك ينبغي لنظرية النحو الوظيفي، إذا وافقناها في ما تطلبت من أنماط الكفايات، أن تدرس في نهاية المطاف النحو الوظيفي للخطاب. بعبارة أخرى، ينبغي أن تبين كيف تتآلف الجمل في تمديدات متلاحمة لحديث أو حوار أو نص مكتوب"[7]. هذا المسعى يمكن أن نجد له تجسيدا مباشرا، متأثرا بأعمال ديك ديك نفسه، عند أحمد المتوكل، وآخر عند روجر فاولر، الذي وظف طروحات هاليداي.

3 - فاولر وأسلافه

يمكن، إذا اعتمدنا التوزيع القومي، أن نتحدث عن تقاليد لسانية إنكليزية، بمقابل الأخرى، الجرمانية أو الفرنسية[8]، فيما نستطيع أن نتحدث عن تأسيس انجلو أميركي ولد مع تشارلس بيرس، وتطور مع موريس، وضع البراغماتية أساسا إلى جانب التركيب والدلالة في التحليل اللغوي، والبراغماتية تعني، في معناها الأوضح، دراسة المعنى في الألفاظ اللغوية عند مستخدميها ومفسريها[9]، وهذا (الأس) انشغل به فلاسفة اللغة في مدرستي كامبيردج وأكسفورد، ومثّل اتجاها وسم الفلسفة الإنكليزية في القرن العشرين[10]، والتأكيد على المؤول فتح الباب أمام النظر في السياق، وإن كان السياق أُريد به عند فلاسفة التحليل وعلى رأسهم (فريجه) أن لا معنى للمفردة إلا ضمن الجملة، فإنه هنا اتخذ معنى أبعد من ذلك. لكن السياق بمعناه الحالي أُخذ من التقليد الأنثروبولوجي، وتحديد مما قدمه مالينوفسكي، الذي ذهب إلى القول بأن اللغة أسلوب عمل وليست تصديقا للتفكير لذا لا يمكن فهمها مقطوعة عن سياق حالتها[11]. هذه الرؤية استلهمها (فيرث) وأضاف بأن سياق الحالة جزء من أداة اللساني. إذ رأى أن عناصر النص (اللغوي) تتألف من: "الصفات المشتركة المتصلة بمن يشتركون في الحديث

---

[1] النظريات اللسانية الكبرى (من النحو المقارن إلى الذرائعية) ماري آن بافو، وجورج إليا سرفاتي، ترجمة محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2012: 187- 188. وينظر: مبادئ التداولية، جيوفري ليتش، تر عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2013: 66.

[2] اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري) د. أحمد المتوكل، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط2، 2010: 11.

[3] المصدر نفسه: 36.

[4] مبادئ ألسنية عامة، أندريه مارتينيه، ترجمة ريمون رزق الله، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1990: 8.

[5] التركيبيات الوظيفية ، قضايا ومقاربات، د. أحمد المتوكل، دار الأمان، الرباط، ط1، 2005: 15.

[6] الوظيفية بين الكلية والنمطية، د. أحمد المتوكل، دار الأمان، الرباط، ط1، 2003: 20.

[7] نحو نحو وظيفي للخطاب، سيمون ديك، ترجمة ربيعة العربي، موقع الحوار المتمدن. http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=352264

[8] ينظر: أنثروبولوجيا اللغة، أندريه جاكوب، تر ليلي الشربيني، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، سلسلة المشروع القومي للثقافة 360، ط1، 2002: 225.

[9] ينظر: اللغة والمعنى والسياق، جيفري ليش وجيني توماس، ضمن الموسوعة اللغوية، تحرير الأستاذ الدكتور ن. ي. كولنج، ترجمة الدكتور محي الدين حميدي والدكتور عبد الله الحميدان، جامعة الملك سعود، السعودية، 1421هـ، ج1: 171.

[10] ينظر: فلسفة اللغة، الأستاذ الدكتور محمد مهران رشوان، والدكتور عصام زكريا جميل، دار المسيرة، الأردن، ط1، 2012: 233- 236.

[11] ينظر: علم الدلالة، أف. آر. بالمر، تر مجيد الماشطة، منشورات الجامعة المستنصرية، بغداد، ط1: 61.

ممن لهم علاقة بالحدث اللغوي، وهذه الصفات أهمها: أحداث لغوية صادرة عنهم، وأحداث غير لغوية، وأشياء خارجية ذات صلة بالحديث، وآثار خارجية ذات صلة بالحديث"[1]. هذه النظرات لم تصبح نظرية إلا مع مايكل هاليداي[2]، الذي ذهب ذهب إلى القول بأن السياق يتكون من ثلاثة مظاهر: المجال ونوع الخطاب، والمشتركين فيه، ومن هذا التقسيم اتّجه نحو توزيع النص بين ثلاثة مكونات: المكون الفكري، والمكون العلائقي، والمكون النصاني اللغوي[3]، ولم يتوقف هاليداي عند الجملة، بل امتد اشتغاله ليشمل النصوص اللغوية بجميع تجلياتها، وطرح مفهوم الاتساق (الانسجام) النصي بوصفه المميز الأساس بين ما هو نص وماهو ليس بنص، مفترضا توافر النص على جملة من الخصائص يطرحها في كتابه (Cohesion in English). وهذا (الانتقال من درس الجملة إلى النص) يعد تطورا كبيرا في الدرس اللساني. أثّر بشكل مباشر فيما قدمه فاولر، وقد جاء كتابه النقد اللساني، في الكثير من فصوله، شارحا وناقدا وموسعا لفرضيات هاليداي "حسب نظرية هاليداي اللسانية، فإن للغة ثلاث وظائف تؤديها بشكل متزامن ومتواصل، ويسمي هاليداي هذه الوظائف بالنصية، والبينشخصية والتصورية (أو التجاربية). وما يعنينا هنا الوظيفة "التصورية"؛ وبعض جوانب الوظيفة النصية يناقشها الفصلان 5 و6، أما الوظيفة البينشخصية فستكون عموما محور الفصلين 7 و8"[4]. وهذا يؤكد حجم تأثير هاليداي، ومن ثم تحرك النقد اللساني في الفضاء الوظيفي[5]

4 - نظرية فاولر اللسانية

مهّد التحليل النصي لهاليداي الطريق أمام (روجر فاولر*) أي تطبيق الوظيفية في درس الأدب، لكنه لم يكتف بما قدمته اللسانيات الوظيفية لدى استاذه وزملائه، بل امتد ببصره صوب الشكلانيين الروس، وما قدّمته مدرسة براغ، فضلا عن البنيوية الفرنسية والتوليدية الاميركية. إذ أكد بوضوح أنه، وإن انطلق من هاليداي، كان انتقائيا، "سأحاول في هذا الكتاب أن أربط معا تيارات متعددة في تخطيط مبدئي وفق منهج جديد، وسأحاول أن أكون انتقائيا في رسم هذه المداخل المتعددة"[6]، ويوضح بعضا من مداخله بالقول: "يمدنا تشومسكي في نحوه التحويلي بتفسير للفكرة التقليدية عن الأسلوب على أنّه علاقة بين المعنى والتعبير، بينما يجعلنا المدخل الوظيفي لهاليداي نفكّر في السبب الذي من أجله يختار مستخدم اللغة بنية جملة معينة ولا يختار أخرى، ويمدنا هاليداي ببعض المصطلحات الجيدة في الإجابة عن هذا السؤال، إنني سوف استخدم هذا الوصف اللساني للتركيز جزئيا على الأساليب التي تغني بها الجمل المفردة الأشكال النصية الأكثر اتساعا. وفي العلاقة بين الأصوات داخل الرواية- هذا الموضوع الذي عالجه نقاد المدرسة اللسانية الروسية التي أسسها ميخائيل باختين... إن الإنشغال الرئيسي لهذا الكتاب، بالنسبة لقارىء الرواية وناقدها سينصب على أهمية بنية الجملة، وأهمية التحويلات في تحليل الجملة الواحدة بشكل متراكم في تحليل عمل كامل، بمعنى أن تحليلاتي الوصفية والتعميمات التي يمكن أن تستخلص منها ستتأسس على نموذج أصيل في لسانيات الجملة""[7].

ويشير فاولر في مقدمته لكتابه (اللسانيات والرواية) إلى أنه سيقدم منظورا جديدا في نقد الروايات، وجدّته متأتية، كما يشير، من كونه كُرِّس لدراسة اللغة العادية، وليس الأعمال الأدبية[8]. والمنظور الذي يتحدث عنه هو المنظور اللساني، مؤكدا أنه استخدمه لسيادة فكرة التقنية، وكون "الالتفات إليها (التقنية) هو الأساس الوحيد لفهم طبيعة السرود النثرية[9]. فضلا عن كونها (الرواية) إبداعا لسانيا. وهو لكي يطبق تحليلا لسانيا فإنه ينطلق من فرضية شاعت عند علماء التحليل النصي، مفادها: أن بنية النص (الخطاب) تشبه بنية الجملة. الأمر الذي يقوده إلى القول بأن "أبواب (مقولات) البنية التي

---

[1] دلالة السياق، إعداد د. ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، جامعة أم القرى، السعودية، ط1، 1423: 567.

[2] للمزيد حول (هاليداي) ونظريته ينظر: علم اللغة النظامي (مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي) الدكتور محمود أحمد نحلة، ملتقى الفكر، مصر، ط2، 2001.

[3] ينظر: دلالة السياق: 24.

[4] النقد اللساني: 63.

[5] للوقوف عند جهود فاولر في تحليل (لغة الأخبار) باستخدام المنهج ذاته، ينظر: دليل السوسيولسانيات، تحرير فلوريان كولماس، ترجمة الدكتور خالد الأشهب والدكتورة ماجدولين النهيبي، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2009: 430- 437.

* ولد فاولر في العام 1938 وتوفى في العام 1999، وهو باحث أكاديمي بريطاني اختص باللسانيات وتطبيقاتها النقدية على النصوص الأدبية والإعلامية. عمل محاضراً في جامعة هَل ثم أستاذاً في اللسانيات في جامعة إيست أنجليا، له ما يزيد على العشرين كتاباً.

[6] اللسانيات والرواية: 11.

[7] اللسانيات والرواية: 11.

[8] ينظر: روجر فاولر، اللسانيات والرواية، ترجمة الأستاذ الدكتور أحمد صبرة، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية، ط2، 2010: 18. وهناك ترجمة أخرى قام بها لحسن أحمامة، وصدرت عن دار الثقافة في المغرب في العام 1997، وقد اعتمدنا ترجمة صبرة لكونها نظرت في الترجمة السابقة. وحاولت تخطي ما وقعت فيه من هنات.

[9] ينظر: المصدر نفسه: 20.

نقترحها لتحليل الجمل المفردة (في اللسانيات) يمكن أن تمتد لتطبق على البنية الأكثر اتساعا في النصوص"[1]. نرى أنه في هذا النص يبين مرجعياته (اللسانية) المباشرة، لكنه في أماكن لاحقة يشير إلى باختين وبارت وليفي شتراوس وتودوروف[2]. وتودوروف[2]. إذ يقول في مقدمته لكتابه النقد اللساني "ركزنا بشكل أساسي على تطوير بعض محاجّة الكتاب المتعلة بالبنية اللسانية الاجتماعية، وبالتداولية... كما وظفنا بشكل أكبر نظرية باختين في تعدد الألسن، رابطين إياها بمصطلحي السيميائية الاجتماعية والسجل النصي من عند هاليداي"[3]. إذن ما يسعى إليه فاولر يمكن عده تطويرا لما سبق أن قدمه أستاذه هاليداي، هاليداي، من تطويع لنحو الجملة لتحليل النصوص. ومن ينظر في كتابه (النقد اللساني) يرى هيمنة فرضية سابير وورف[4]، وورف[4]، فهو يقول: "يبدو أن البشر لا يحتكون بالعالم الموضوعي مباشرة، بل يرتبطون به عن طريق أنظمة التصنيف التي تبسّط الظواهر الموضوعية، وتجعلها موضوعات طيعة، ومقتصَدة، ومادة سائغة للفكر والفعل، بعبارة أخرى، يبتكر البشر العالم مرتين: في المرة الأولى يغيّرونه بواسطة التكنولوجيا، وفي المرة الثانية يقومون بإعادة تأويله عن طريق إسقاط التصنيفات عليه"[5]. وهذا الكلام لا يمكن إخراجه من دائرة النسبية اللغوية التي ذهب إليها سابير وورف في فرضيتهما. وهذه النسبية تجعل من الفعل اللغوي ابداعي في أساسه، ومن ثم مضاعف الابداع في جانبه الأدبي. من هنا يمكن فهم تأكيد فاولر ضرورة أن يكون النقد اللساني قادرا على التعامل مع النص المنتج، من دون النظر فيما إذا كان أدبيا أم لا. كما لم يقصر وظيفة النقد على النص فقط، بل وسعه ليكون مرادفا للمعرفة الشمولية "إن الدافع الأساسي للمارسة النقد لا يمكن أن يكون السلبية، وإنما هو التشكيك الفضولي المجدي. فالنقاد مهتمون بظروف المعرفة في مجتمعاتهم والقيود المفروضة عليها؛ وبطرق انتاج المعاني؛ وبمضامين أنظمة المعاني المؤثرة في أفراد مجتمعاتهم؛ وبالتالي بنسبية معرفتهم الخاصة ومكامن إبداعيتها"[6]. وإذا كان هنا يبين شروط الناقد، فإنه في مكان لاحق يوضح شروط النقد اللساني نفسه، بالقول: "إن النقد تحليل واع للعلاقات بين العلامات/ الدوال الكلمات، والمركبات... إلخ، التي ينتجها الناس، وبين المعاني التي يتناقلونها، وتحليل هذه العلاقة هو بالضرورة استكشاف للأصول الاجتماعية للمعاني، والأغراض الاجتماعية للغة المحكية والمكتوبة. وعليه، فإن النقد ليس مسعى ذاتي التبرير أو ذاتي الاكتفاء، ولا هو ضرب من ضروب اللامبالاة. إن النقد شكل من أشكال المراس الاجتماعي"[7]

5 - التحليلية البنيوية

يطلق على تحليله تسمية (التحليل البنيوي) ويوضحه بالقول: "يركز التحليل البنيوي _ وهو مقاربتي.._ على النص بوصفه موضوعا... اقترحَت (نظريته) أساليب تترابط بها الرواية الفردية أو القصة بالسياقات الأوسع من الكتابة والقراءة والبنية الاجتماعية"[8]. فيما أسماه (منهجه) في كتابه النقد اللساني (المنهج التحليلي Analytic method): "إن الغرض الرئيسي لهذا الكتاب إذا، هو أن نطرح أهمية المنهج التحليلي المستنبط من اللسانيات للنقد، وأن نبيّنه"[9]. وبرغم أن الكلام السابق يشير إلى منهجين مختلفين إلا أن المطلع على ما كتبه (فاولر) يدرك أن المنهج واحد، وإن اختلفت المسميات. من هنا يمكن أن نطلق عليه (البنيوي التحليلي) مقابل (البنيوية التركيبية*)، فهو بنيوي لكونه يسعى لاستكشاف بنية النص المدروس، وتحليلي لأنه ينطلق من الكلية إلى تحديد الجزئيات المشكلة للنص، وهو لم يتوقف عن الوحدات المكونة للنص فحسب، بل اتجه نحو التحليل السيميائي ليعزز الجانب الفني. من كل ما سبق نجد أن اعتماد البنيوية التحليلية في وصف اتجاهه في النقد دقيق إلى حد كبير.

---

[1] المصدر نفسه: 23.
[2] ينظر: المصدر نفسه: 12، و13.
[3] النقد اللساني: 15.
[4] ينظر: مبادئ النسبية اللغوية، بنيامين لي ورف، ضمن كتاب الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية، د. ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1985: 161. وفيها يذهب وورف إلى القول إن اللغة لا تعبر عن أفكار الفرد فقط بل تقوده. ومؤداها أن بنيات اللغة الأم تحدد نمط التفكير لدى شعب من الشعوب، وتنظم ثقافته. برغم انتقاد فاولر لبعض فرضيات وورف. ينظر: النقد اللساني:86.
[5] النقد اللساني: 57.
[6] النقد اللساني: 90.
[7] النقد اللساني: 92.

[8] اللسانيات والرواية: 189.
[9] النقد اللساني: 26.
* البنيوية التركيبية مصطلح أطلقه الأستاذ جمال شحيذ على منهج لوسيان غولدمان الاجتماعي، فيما أطلقها الباحث أكرم حجازي على منهج بيير بورديو، في حين أرى أن البنيوية، أية بنيوية، هي تركيبية في أساسها، وهنا البنيوية التحليلية مصطلح مبني على مفارقة مقصودة.

فيما لا يميز في تحليله بين النص العادي والنص الأدبي، ويذهب إلى القول: "إن اللغة الشعرية ليست كيانا موضوعيا متميزا، وإنما هي مفهوم متخيل أنتجته مؤسسة الأدب عن طريق النشر، والمراجعات والنقد، والتنظير والتدريس"[1]. فيما يكون النقد جزءا من الحيز الاجتماعي، لكن هو الجزء الناقد المشكك، الواعي بخطورة ما أسماه الاعتيادية والشرعنة، التي تسير معظم الأفعال، والأقوال البشرية، لهذا ذهب إلى القول بأن "النقد ليس إصدار أحكام وحسب، أي الزعم بأن عملا ما عمل جيد أو سيئ. فمهما يكن، فإن الناقد الجاد يعرف أن المسائل المرتبطة بالقيم (أخلاقية كانت أو اجتماعية) تدخل في حيّز نقده طالما أن الأعمال التي يستكشفها ومعانيها قد خرجت من رحم التفاعل الحاصل بين الفرد والمجتمع"[2]. وليس مستغربا أن يحيلنا هذا القول نحو المدرسة الاجتماعية الإنكليزية وعلى رأسها رايموند ويليامز، الذي سبق له أن أكد في كتابه (الثقافة والمجتمع) التحولات العميقة في المدلولات اللغوية المرتبطة بالتحولات الاجتماعية "لم أختص في بحثي واستقصائي بتمييز المعاني فحسب، بل بارتباطها بمصادرها وبمؤثراتها... سأهتم بوجه خاص بالتطورات العامة التي طرأت على معاني اللغة، وهذه التطورات دائما ما تكون أكثر من مجرد تطورات شخصية"[3]. وهذا (نسق مضمر) لم يشر إليه فاولر. وهو نسق يتضح بشدة حين نقارن ما سبق أن طرحه رايموند وليامز بقول فاولر: "الهدف الأساسي من النقد اللساني في المجال الأول هو تحدي هالة القدسية التي تحيط بممارسة ما، أي توضيح الممارسات التي تُستعمل اللغة فيها لتقديم مفاهيم منحازة ومنزاحة لتبدو وكأنها بريئة وطبيعية. أما في المجال الثاني، فيهدف النقد إلى التمحيص الذاتي، والتيقظ لنفاذ القيم الاجتماعية إلى خطابنا الخاص، والتي قد نرغب، بعد التأمل، وفي اجتثاثها أو مقامتها"[4]. وهذا الفهم يغلب يغلب عليه البعد المعرفي – الاجتماعي لا البعد اللساني. الأمر الذي يؤكد أن ثمة مؤثرات أخرى لم يشر إليها فاولر صراحة، منها، فضلا عن وليامز، ميشيل فوكو، الذي تحول النقد اللساني بعد فاولر باتجاه مقولاته صراحة. وضمن هذا المساق يمكن أن نفهم توحيده النظر في النص الإبداعي والنص اليومي (الاعتيادي)، "لو أردنا تطبيق اللسانيات على الرواية، فيجب أن نفترض أن الفئات التي يمكن تطبيقها على اللغة العادية، قابلة للتطبيق أيضا على النصوص الروائية، ولن تسلبها التقنية أو طبيعة موضوعاتها قوتها من خلال مهابة القيود الاستهلالية التي تنشأ عن القدرة الخاصة المفترضة في الأدب"[5] فهذه الرؤية وإن كانت وليدة تأثره المباشر بأستاذه (هاليداي) فإنها أيضا تتفق تمام الاتفاق مع معظم الطروحات الطروحات البنيوية، وعلى رأسها طروحات بارت وفوكو.

لكن يبقى مسيره المباشر مرتبطا باستاذه هاليداي، فهو عندما لا يبتغي من دراسته إعطاء الأولوية للغة ودراسة طبيعة تشكلها في النص الأدبي، أو تشكل هذا النص لغويا، إنما يسعى لتوظيف منهج لساني في دراسة النص، ومنهجه، كما أشرنا من قبل، اللسانيات الوظيفية. إذ سبق لهاليداي أن أوضح هذا بجلاء، بقوله: "عندما نتحدث (إذا) عن الدراسة اللسانية للنصوص الأدبية، فإننا لا نقصد دراسة اللغة فحسب، وإنما دراسة مثل هذه النصوص بواسطة مناهج اللسانيات"[6]، ويؤكد فاولر أن "اللسانيات ليست إجراء استكشافيا، وليست إجراء نقديا: لذلك فهي بحاجة لأن توجهها فرضيات أولية تتم مراجعتها في ضوء الأدلة اللغوية، ويتم تعديلها وتأكيدها تدريجيا بتدرج التحليل"[7]، هذه الفرضيات الأولية عند فاولر فرضيات المدرسة الوظيفية "في اعتقادي، فإن... الوظيفية تنسجم انسجاما تاما مع افتتان النقد الأدبي بالبحث التفسيري، وهي بذلك مساعد طبيعي له ومصدر للأفكار"[8] لكنه، وكما أشرنا من قبل لا ينسى البعد الاجتماعي "إن فئة (الخطاب) كما أتصورها منطقة خصبة للتطوير في اللسانيات، وآمل أن أرى قدرتها على صنع إسهام أصلي في دراسات علم اجتماع الرواية"[9]، وهو عندما يتحدث عن البعد الاجتماعي، فإنه يربطه بما يسميه "التقاليد" ويرى أن "التأسيس التنظيمي للمجتمع (مشتملا على قواعد الكتابة) يتعالى ويتحكم في الفرد، وتحدد الأشكال اللفظية التي يستطيع (أو تستطيع نشرها) أو تحدد الاستجابة لها، هذا التحكم يطبق على الروائي مثلما يطبق على القارىء، إنه يستطيع (أو تستطيع الكتابة) بوضوح ضمن الاحتمالات التي تمده بها أنظمة التقاليد التي تحدد الثقافة"[10]. فيما يتحدث في مقدمته لكتاب (اللسانيات والرواية) بأنه سيقدم منظورا جديدا في قراءة الرواية. منظور اعتمد الدرس اللساني الذي انشغل، من قبل، بدراسة وتحليل الجملة[11]. "إنني سوف أطرح بعض الأفكار العامة المأخوذة من نحو النص، مفترضا أن النص له بنية كلية شبيهة ببنية الجملة الواحدة"[12]، ويعزز

---

[1] النقد اللساني: 166.
[2] النقد اللساني ص90.
[3] الثقافة والمجتمع، رايموند وليامز، تر: وجيه سمعان، مراجعة: محمد فتحي، دار الشؤون العامة (مشروع النشر المشترك) بغداد، ط1، بلا: 13.
[4] النقد اللساني: 93.
[5] اللسانيات والرواية: 77.
[6] هذا النص لهاليداي من كتابه The linguistic Study of Literary Texts, p. 217. ينظر: النقد اللساني: 20.
[7] النقد اللساني: 30.
[8] النقد اللساني: 33.
[9] اللسانيات والرواية: 194.
[10] اللسانيات والرواية: 191.
[11] ينظر: اللسانيات والرواية: 18.
[12] اللسانيات والرواية: 12.

هذا بقوله: "الالتفات إلى التقنية هو الأساس الوحيد لفهم طبيعة السرود النثرية"[1]. ويوضح مفهوم التقنية بالقول: "عالم الرواية الخارجي عالم مصطنع منشأ من خلال تقنية الراوي، ويجب أن نكون معنيين بالوسائل التي يتحقق بها هذا العالم"[2]. العالم"[2]. ينطلق من مسلمة أساس، مفادها: "سوف أؤكد على أن بنية النص تشبه بنية الجملة... هذا يعني أن أبواب البنية التي نقترحها لتحليل الجمل المفردة يمكن أن تمتد لتطبق على البنية الأكثر اتساعا في النصوص"[3]. بعدها يبدأ اشتغاله اللساني معتمدا لسانيات تشومسكي (التحويلية): "إن التحويلية عمليات شكلية تحول المعنى المجرد إلى بنية سطحية بواسطة سلسلة منتظمة من التغيرات البنيوية"[4]، منها يعود بالإلماح إلى مدرسة براغ، وجهود جاكوبسن "من أجل تنظيم شكل بنيته بنيته اللسانية يتمتع الكاتب باختيارات متسعة في أساليب التعبير، وتؤثر الاختيارات التي يصنعها بقوة على منظور المعنى بتوجيه انتباهنا إلى المحتوى، وإلى بنية العالم المرسوم في الرواية، بطريقة أو أخرى"[5]، وما سبق يدعمه قوله: "وسيلتنا الوحيدة للاقتراب من المعاني الكامنة للنصوص تكون عن طريق نظم وأشكال واختيارات الكلمات التي نواجهها في السطح، هذا يعني أننا نختبر المعنى عن طريق الشكل فقط بواسطة إدراك القواعد التحويلية التي توظفها النصوص، وإن المعنى يأتي إلينا عن طريق الشكل الذي يُعبر من خلاله"[6]. بعده يضع تقابلات بين الجملة والنص، ومن ثم فالجملة تقابل العمل الروائي، والبنية السطحية تقابل النص، والصيغية (الجهوية) تقابل الخطاب، فيما الخبر يقابل المحتوى. وتمييزه بين النص والخطاب هنا مختلف عن التمييز البنيوي، إذ أراد بالنص سلسلة من الجمل ترتبط بالشكل من خلال تتابع مستمر ومتماسك. فيما أراد بالخطاب: الحوار ووجهة النظر، والاتجاه ورؤية العالم. فيما أراد بالمحتوى: الحبكة والشخصية، والثيمة[7]. ثم يعود نحو البعد الاجتماعي المضمر: "يُخلَق الخطاب الروائي من تفاعل الأعراف الثقافية، وتوظيف المؤلف التعبيري لهذه الأعراف كما تشفر في اللغة، ونشاط القارىء في إدراك المعنى من النص"[8]

6 - الأسلوبية والنقد اللساني

الحديث عن اللسانيات وتطبيقاتها النقدية في الغالب يقود باتجاهين: الأسلوبية وعلم النص (تحليل الخطاب)، ولم نتحدث عن كلا الاتجاهين فيما سبق حتى لا يُولَّد اعتقاد بعلاقة فاولر بأي منهما. فلم يطرح أو يختط طريقا (منهجا) أسلوبيا، ولم ينشغل، في جميع ما كتب، بالدرس الأسلوبي، وإن قال: "النقد اللساني ليس مجرد نقد للغة، بل هو نقد يوظف اللسانيات"[9]، لكن التوظيف المقصود هنا ليس توظيفا أسلوبيا. إذ إن "هدف أغلب الدراسات الأسلوبية هو تبيان كيف يشتغل النص: لكن ليس فقط لوصف السمات الشكلية للنصوص في حد ذاتها، ولكن لإظهار دلالتها الوظيفية في تأويل النص، أو لربط التأثيرات الأدبية أو الموضوعات بالمسببات اللغوية"[10]، هذا التحديد يوضح الفرق بين الأسلوبية والنقد اللساني، لكون الأخير لم يغفل دور القارىء، وانشغل بالسياق بحكم انبثاقه من المدرسة الوظيفية. برغم أن هناك من يعدهما مترادفين[11]. ويمكن أن نرى في التطور الذي آل إليه النقد اللساني السير باتجاه أكثر خصوصية، وأعمق تمايزا، فنورمان فيركلوغ وروث ووداك وبول شيلتون توجوهوا صوب الأيديولوجيا وتأثير الأنظمة الاجتماعية على انتاج الخطاب[12].

أما إذا نظرنا للعلاقة بين النقد اللساني وتحليل الخطاب، فسنرى أن عمل فاولر كان تطويرا لعمل هاليداي، كما أشرنا من قبل، لكنه لم يحصر نفسه في الأطر النصية التي سيطرت تمام السيطرة على عمل الأخير. وعلى وفق هذا يمكن أن ربط بين ما قدمه (فاولر) وبين أعمال لسانيين نصيين، لم ينشغلوا بالنص فحسب، بل امتدت رؤاهم لتتسع للسياق والتلقي، وعلى رأس هؤلاء (فان ديك[13]).

7- الخاتمة

---

[1] اللسانيات والرواية: 20.
[2] اللسانيات والرواية: 20. ويوضح الأمر بشكل أكثر جلاءً في الصفحة اللاحقة، بقوله: تقنية الكاتب أولا وأخيرا هي مهارة في اللغة.
[3] اللسانيات والرواية: 23.
[4] اللسانيات والرواية: 40.
[5] اللسانيات والرواية: 43.
[6] اللسانيات والرواية: 45.
[7] ينظر: اللسانيات والرواية: 74- 75. ويحدد الخطاب بقوله: إن الخطاب خاصية للغة الوسيطة للعلاقات التواصلية التي يعبر عنها من خلال أي فعل اتصالي، وفي العمل الروائي تطبيق لسانيات الخطاب تطبيقا طبيعيا على وجهة النظر، الموقف البلاغي للمؤلف تجاه راويه، تجاه شخصياته". المصدر نفسه: 86.
[8] اللسانيات والرواية: 126.
[9] النقد اللساني، روجر فاولر، ترجمة د. عفاف البطاينة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2012: 13.
[10] معجم الأسلوبيات، كاتي وايلز، ترجمة خالد الأشهب، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2014: 637.
[11] ينظر: المصدر نفسه: 175.
[12] ينظر: المصدر نفسه: 176.
[13] ينظر: النص والسياق، فان ديك، تر: عبد القادر قنيني، منشورات أفريقيا الشرق، بيروت، ط1، 2000.

من كل ماسبق يمكن أن نخرج بالقول إن مساحة النقد اللساني، برغم سعتها المطروحة في أفكار فاولر، إلا أنها مساحة قادرة على منحنا منهجا يمكن له أن يتجاوز الأحادية التي عرفتها العديد من المناهج السائدة، مثل: منهج جينيت، وتأكيده الجانب الفني، ومنهج غريماس، وتأكيده الجانب الثيماتي. والأحادية الأعمق التي عرفتها الدراسات الأسلوبية في بعديها المحلي (العربي) والعالمي. إذ جرى التأكيد على لغة النص وشكله، واستبعد المحتوى. ومن جانب آخر نراه منهجا أكثر مرونة من مناهج تحليل الخطاب التي جرى التسويق لها بقوة مؤخرا. ثم إن مجالنا النقدي بحاجة إلى أن يتسع برؤاه، في الوقوف عند مختلف الاتجاهات النقدية، ومن تفاعل هذه الاتجاه يمكن له أن يكون خصبا معطاءً. لكن من جانب آخر فإن هذا المنهج بسعته المطروحة يمكن أن يكون تلفيقا مخلا إذا أسيىء، فليس من الممكن اعتماده من قبل الدارس ما لم يكن ملما، إلى حد ما باللسانيات الوظيفية، لكي يحافظ على قاعدة ارتكازه ولا يضيع بين مدارس كان لها أثرها في تشكل نقد فاولر.

الفهارس

1 - الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية، د. ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1985.
2 - الألسنية والنقد الأدبي (في النظرية والممارسة) الدكتور موريس أبو ناضر، دار النهار للنشر، بيروت، ط1، 1979.
3 - أنثروبولوجيا اللغة، أندريه جاكوب، تر ليلي الشربيني، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، سلسلة المشروع القومي للثقافة 360، ط1، 2002.
4 - التركيبيات الوظيفية ، قضايا ومقاربات، د. أحمد المتوكل، دار الأمان، الرباط، ط1، 2005.
5 - الثقافة والمجتمع، رايموند وليامز، تر: وجيه سمعان، مراجعة: محمد فتحي، دار الشؤون العامة (مشروع النشر المشترك) بغداد، ط1، بلا.
6 - دلالة السياق، إعداد د. ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، جامعة أم القرى، السعودية، ط1، 1423.
7 - دليل السوسيولسانيات، تحرير فلوريان كولماس، ترجمة الدكتور خالد الأشهب والدكتورة ماجدولين النهيبي، منشورات المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2009.
8 - علم الدلالة، أف. آر. بالمر، تر مجيد الماشطة، منشورات الجامعة المستنصرية، بغداد، ط1.
9 - علم اللغة النظامي (مدخل إلى النظرية اللغوية عند هاليداي) الدكتور محمود أحمد نحلة، ملتقى الفكر، مصر، ط2، 2001.
10 - فلسفة اللغة، الأستاذ الدكتور محمد مهران رشوان، والدكتور عصام زكريا جميل، دار المسيرة، الأردن، ط1، 2012.
11 - القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، أوزوالد ديكرو، جان ماري سشايفر، ترجمة د. منذر عياشي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 2007.
12 - اللسانيات والرواية، روجر فاولر، ترجمة الأستاذ الدكتور أحمد صبرة، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية، ط2، 2010.
13 - اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري) د. أحمد المتوكل، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط2، 2010.
14 - اللغة والخطاب الأدبي، مجموعة كتاب، اختيار وترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1993.
15 - اللغة والمعنى والسياق، جيفري ليش وجيني توماس، ضمن الموسوعة اللغوية، تحرير الأستاذ الدكتور ن. ي. كولنج، ترجمة الدكتور محي الدين حميدي والدكتور عبد الله الحميدان، جامعة الملك سعود، السعودية، ط1، 1421هـ.
16 - مبادئ التداولية، جيوفري ليتش، تر عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2013.
17 - مبادئ السنية عامة، أندريه مارتينيه، ترجمة ريمون رزق الله، دار الحداثة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1990.
18 - معجم الأسلوبيات، كاتي وايلز، ترجمة خالد الأشهب، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2014: 637.
19 - نحو نحو وظيفي للخطاب، سيمون ديك، ترجمة ربيعة العربي، موقع الحوار المتمدن. http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=352264
20 - النص والسياق، فان ديك، تر: عبد القادر قنيني، منشورات أفريقيا الشرق، بيروت، ط1، 2000.
21 - النظريات اللسانية الكبرى (من النحو المقارن إلى الذرائعية) ماري آن بافو، وجورج إليا سرفاتي، ترجمة محمد الراضي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2012.
22 - النقد اللساني، روجر فاولر، ترجمة د. عفاف البطاينة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2012.
23 - الوظيفية بين الكلية والنمطية، د. أحمد المتوكل، دار الأمان، الرباط، ط1، 2003.